قاسم الزهيري: انطفاء قلم

د. المهدي المنجرة*

■ رحل المرحوم قاسم الزهيري إلى جوار ربه، لكنه مازال يعيش في الذاكرة الجماعية للمغرب المعاصر. لقد توفي قاسم الزهيري يوم الأحد 30 ماي 2004، في سن 84 سنة. وشعر جميع الذين تعرفوا عليه من بعيد أو قريب، بعد هذا المصاب الجلل، بخسارة حقيقية. وستستمر بيننا آثاره كمناضل وموقع على وثيقة الاستقلال في 11 يناير 1944، وصحافي كان قلمه متميزا ببساطة الشكل ووضوح التعبير والتحكم في المضمون وعشق محب لبلده وتاريخه وقيمه. لقد عرف ممارسة المزايا الكبرى لقيدوم الصحافة والنشر المغربيين المرحوم سي سعيد حجي الذي كان من تلامذته، كما استطاع نقلها. وإذا كان حجي مدير يومية المغرب وملحقه الأدبي، فإنه كان مقاوما من الرعيل الأول، رحل عن عالمنا عام ,1942 وتميز المرحوم الزهيري بنبع لا ينضب من الإلهام طيلة مساره النضالي والوطني والمهني، حيث كان عضوا نشيطا ومؤثرا في حزب الاستقلال وتوفق في مهامه الصحافية، وساهم في تدعيم إشعاع جريدة العلم ومهنيتها بعدما كان مديرا لها.

وكان الزهيري مايسترو التواصل. وكانت رسالته واضحة للجميع مع الاحتفاظ بجوهريتها. وسهلت عليه معارفه واستقامته الفكرية وقناعته ولاسيما تواضعه النموذجي، المهمة بشكل كبير. وليس مستغربا أن يصبح فيما بعد ديبلوماسيا محنكا كسفير ومساعد للأمين العام للمؤتمر الإسلامي، حيث كان مكلفا بالقضايا السياسية والإعلام. ولقد حظيت بشرف كبير عندما خلفته في منصب المدير العام للإذاعة المغربية عام 1959 الذي كان أول من عيّن فيه بعد الاستقلال. وأستطيع أن أشهد على مدى الاحترام والتعاطف اللذين كان يتمتع بهما في هذه المؤسسة التي طبعها بخصاله الإنسانية، ومهنيته وكذا حبه للصحافة ونشر الأفكار.

ولا يرجع سبب الاحترام الذي أكنه لقاسم الزهيري، رحمه الله، لأنشطته النضالية ومهامه الصحافية من مرتبة عالية وكتابته الغزيرة عن المغرب والإسلام وإفريقيا فحسب، بل لأننا كنا غالبا ما نلتقي بصديق مشترك، هو المرحوم الدكتور المهدي بنعبود الذي كان يقدره كثيرا. ومكنتني تلك اللقاءات من اكتشاف شساعة معارف قاسم الزهيري، ومنهجيته في الحوار، وخطواته البيداغوجية الناجعة.

ويوجد أشخاص آخرون مؤهلون أكثر مني للحديث عن قاسم الزهيري الوطني المناضل، ورجل السياسة ذي الوجه الإنساني، والصحافي الذي لا يضاهى، والكاتب الملهم والديبلوماسي البارع ومحب بلده، والمسلم التقي والمنفتح في إطار تقليد الشيخ شعيب الدكالي والسي علال الفاسي والفقيه بلعربي العلوي والفقيه المختار السوسي وسيدي المدني بن حسني والفقيه الزموري والسي عبد الله كنون وآخرين.

لقد حررت هذه الشهادة بعد أقل من عشر ساعات من مغادرة سي قاسم هذا العالم. وهذه الكلمات هي موجهة لتخفيف الآلام التي أشعر بها بسبب خسارة رجل أعطى الكثير وحصل على القليل. وهذه هي خصال الرجال العظام، الذين لا يتركون على هذه الأرض إلا «الأمور اللامادية» التي تدوم مثل أفكارهم وكتاباتهم ونزاهتهم وذكريات عن خصالهم الإنسانية. وثروات قاسم الزهيري توجد دائما هنا للذين يرغبون في القيام ببعض مشاق البحث عنها.

وفيما يتعلق بي فإني فقدت صديقا متسامحا، كان يفهمني ويهدئ من روعي، عندما كان غيظي يتجاوز الحدود المسموح بها، لأنه كان يتقاسم معي نفس الانشغالات. انشغالات الدفاع عن الكرامة. لقد عاش قاسم الزهيري كريما، وربى أبناءه على الكرامة، وناضل بكرامة، ومارس السياسة بكرامة، ومارس مسؤوليات كبرى بكرامة، ورحل في كرامة وسيستقبله ربه بالكرامة التي يستحقها.

لقد انطفأ قلم لا يضاهى، لكن حبره لن ينمحي مثل الذكرى التي يتركها صاحبه. رحمك الله يا سي قاسم.

إنا لله وإنا إليه راجعون

* مفكر من المغرب